نشاط الرواية الكتابية عند تابعي الكوفة

"دراسة تاريخية تحليلية "

The Reality of Writing Activity Among the Followers of Kufa: A Critical Historical Study

د. راما نبيل أبو طربوش*

جامعة بولو أبانت عزت بيسل (تركيا)

ramanabilhasan.abutarnboush@ibu.edu.tr

تاريخ الارسال: 2025/02/03 تاريخ القبول: 2025/11/27 تاريخ النشر: 2025/12/27

ملخص:

تدرس هذه الورقة فكرة انتشار الكتابة عند التابعين في مدينة الكوفة؛ لمعرفة مدى نشاط الكتابة عندهم في تلك الفترة مع المقارنة بين طبقات التابعين في ذلك، حيث لوحظ أنّ مدينة الكوفة قلّ فيها النشاط الكتابي سيّما عند كبار التابعين وهو بخلاف بعض المدن كالمدينة المنورة. وتأتي هذه المقاربة في ضوء ملاحظة أنّ غالب الدراسات السابقة تناولت ظاهرة تدوين الحديث من منظور عام دون مراعاة للفروقات الزمانية والمكانية في هذه المسألة فجاءت نتائجها عامّة ممّا أدّى إلى التناقض بين نتائجها وواقع حال الرواية المكتوبة في كلّ مدينة على الخصوص. وتطرح هذه الدراسة الأسئلة الآتية: هل كان لكبار تابعي مدينة الكوفة دور في نشاط كتابة الحديث مقارنة بأواسط تابعيها وصغارهم؟ وما طبيعة تلك الكتابات؟ وما أسباب تأخّر كتابة الحديث عندهم إن أثبتت الدراسة ذلك؟ منتهجة في ذلك المنهج الاستقرائي لطبقات التابعين في مدينة الكوفة وانتقاء أكثر الرواة شهرة ورواية في كل طبقة من طبقات التابعين لتكون عيّنة صالحة للبحث، ثم المنهج التحليلي لتتّبع طبيعة الكتابة وحدود انتشارها. وتوصّلت الدراسة إلى نتائج منها:

* المؤلف المرسل

أنّ النشاط الكتابي كان أشدّ وضوحاً عند صغار التابعين منه عند كبارهم، وأنّ هناك اختلافا واضحا في طبيعة الكتابة بين تلك الطبقات، كما تبيّن أنّ لموقف صحابة الكوفة من الكتابة أثر واضح على نشاطها، ومن ثمّ فإنّ نتائج هذه الدراسة تؤكّد الحاجة إلى الانتقال من الطرح العام لتاريخ تدوين الحديث إلى الطرح الجزئي الخاص الذي يراعي البيئة الجغرافية والمكانية.

الكلمات المفتاحية: الحديث، كتابة الحديث، الكوفة، التابعون، نشاط.

Abstract:

This paper examines the spread of writing among the Tabi‘un in the city of Kufa, aiming to assess the extent of writing activity during that period and to compare it across different layers of the Tabi‘un. It was observed that writing activity in Kufa was particularly low among the senior Tabi‘un, in contrast to some other cities such as Medina. This approach is based on the observation that most previous studies addressed the phenomenon of Hadith transcription from a general perspective, without taking temporal and spatial differences into account, resulting in findings that were overly general and, consequently, sometimes inconsistent with the actual written transmission in each city. The study addresses the following questions: Did the senior Tabi‘un of Kufa play a role in writing Hadith compared to the middle and junior Tabi‘un? What was the nature of these writings? And, if confirmed, what were the reasons for the delay in Hadith writing among them? The research employs an inductive method focusing on the Tabi‘un of Kufa, selecting the most prominent and prolific narrators from each layer as a valid sample, followed by an analytical method to trace the nature of writing and the extent of its dissemination.

Keywords: Hadith, writing of Hadith, Kufa, followers, Activity.

مقدمة:

تهدف هذه الورقة إلى تدقيق النظر في فكرة انتشار الكتابة أو نشاطها عند تابعي الكوفة، إذ المشهور في الدراسات التي تحدّثت عن كتابة الحديث أو تدوينه أنّ بدايات الكتابة كانت في زمن النبي ﷺ ثمّ توسّعت وانتشرت في زمن الصحابة والتابعين، إلّا أنّ هذه الدراسات جاءت على عمومها في إثبات كتابة الحديث في تلك الأزمنة ودون مراعاة للاختلاف بين المدن في حركة النشاط الكتابي؛ لأجل هذا جاءت هذه الورقة لتدقّق في هذه الفكرة وتبحث في إحدى المدن المشهورة في كثرة رواية الحديث وهي مدينة الكوفة، سيّما وقد لوحظ ضعف النشاط الكتابي فيها، فجاءت الورقة تدرس بداية انتشار الكتابة فيها، وتقوم بتتّبع ذلك في طبقات التابعين جميعها، مع مقارنة قوّة انتشارها بين تلك الطبقات، ثمّ أثر تلك الكتابة على ضبط رواتها.

إشكاليّة البحث: تطرح هذه الدراسة الأسئلة الآتية:

1-هل كان لكبار تابعي مدينة الكوفة دور في نشاط كتابة الحديث؟

2-ما مدى اعتماد هذه الطبقة على الكتابة مقارنة بأواسط التابعين وصغارهم؟

3-ما هي طبيعة تلك الكتابات في عهد تابعي الكوفة؟ وهل هناك فرق في طبيعتها بين طبقات التابعين؟

4- وهل كان لآراء الصحابة الذين نزلوا الكوفة أثر في انتشار الكتابة عند تابعها؟

5-ما أثر الرواية على قوّة وضبط الرواية.

منهج البحث: أنتهج في هذه الدراسة المنهج الاستقرائي لطبقات التابعين في مدينة الكوفة وانتقاء أكثر الرواة شهرة ورواية في كل طبقة من طبقات التابعين لتكون عيّنة صالحة للبحث وقد اعتمدت على كتابَي " طبقات الحفاظ للذهبي والسيوطي" في تصنيف طبقات الرواة، ثم المنهج التحليلي لتتّبع طبيعة الكتابة وبدايات انتشارها بين طبقات التابعين، وأسباب تأخّر نشاطها، بالإضافة إلى تحليل أثر الكتابة على ضبط رواة الكوفة للحديث، وعلاقة ذلك بترجيح الرواية الكتابية على الشفوية أو العكس.

الدراسات السابقة:

هناك دراسات كثيرة حول هذا الموضوع سواء عربيّة أو تركيّة أو حتى أجنبيّة تتحدّث عن تدوين الحديث عموماً وفي زمن التابعين خصوصاً، وأذكر منها ما يلي:

1-الدراسات العربية وأشهرها دراسة الدكتور محمد الأعظمي في كتابه: " دراسات في تاريخ الحديث وتاريخ تدوينه"، والدكتور محمد عجاج الخطيب في كتابه " السنة قبل التدوين" ، ودراسة أحمد بن عمر بن هاشم " كتابة الحديث في عهد النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة وأثرها في حفظ السنة"، وكذلك دراسة محمد بن مطر الزهراني " تدوين السنة النبوية نشأته وتطوره منذ القرن الأول حتى القرن التاسع"، وغيرها من الدراسات المشابهة.

وهذه الدراسات حاولت إثبات وجود فكرة الكتابة في عصر النبوة والصحابة وكان الهدف من كلّ تلك الدراسات إثبات موثوقية السنة والردّ على كل من يزعم بأنّ كتابة الحديث لم تكن موجودة في زمن مبكّر بالتالي لا يمكن الوثوق بالأحاديث.

2- الدراسات التركيّة وأهمّها وأشهرها دراسة الدكتور فؤاد سزكين (تاريخ التراث العربي) حيث تطرّق لعلم الحديث وتاريخ تدوينه وكان هدف هذه الدراسة كالدراسات العربية السابق ذكرها حيث حاول إثبات التدوين في زمن مبكّر ردّاً على من يزعم بعدم موثوقيّة السّنة بحجة تأخّر تدوينها، وكذلك دراسة للدكتور Talat Koçyiğit وهي: " Hadislerin Toplanması ve Yazı ile Tesbiti" وبالعربية تعني "جمع الأحاديث وتوثيقها بالكتابة"، حيث حاول جمع جميع العبارات التي تشير إلى الكتابة لبيان تاريخ وقيمة الأحاديث المجموعة وتمّ تدوينها، كما حاول دراسة الخلافات حول كتابة الحديث. وهناك دراسة شبيهة بذلك للدكتور Muhittin Düzenli وهي: Hadislerin Yazım Serüveni، وبالعربية تعني "تاريخ تدوين الحديث من الرواية الشفوية إلى الكتابية"، درس فيها عن تاريخ الكتابة وكيفيّة انتقال الرواية منذ بداية الإسلام من الشفويّة إلى الكتابية مع بيان حالها وانتشارها أيضاً في زمن التابعين، كما أنّه ركّز على فكرة وجود معارضين لكتابة الحديث سواء في زمن الصحابة والتابعين، وحاول أن يحلّل أسباب هذه المعارضة، وقد أفدت من الأسباب التي ذكرها.

وأخيرا دراسة للدكتور Sait İnan . وهي: Hicri Birinci Yüzyılda Hadis Kitabeti (Hz. Peygamber Sonrası)، وبالعربية: "كتابة الحديث في القرن الأول الهجري (بعد النبي صلى الله عليه وسلم)"، حيث حاول بيان تطوّر مرحلة الكتابة في القرن الأول الهجري وبيان المواقف المختلفة في مسألة كتابة الحديث ولكن الباحث يرى أنّ المواقف الإيجابية أي قبول الكتابة كانت أكثر بكثير من معارضتها فإنّه يرى أنّ الكتابة في عهد النبي ﷺ وما بعده بدأت تنتشر بشكل ملحوظ.

وهذه الدراسات كلّها حاولت دراسة مسألة الكتابة في القرون الأولى وما حولها من نقاشات حول قبولها أو رفضها، مع بيان العوامل التي ساعدت على الكتابة.

ثمّ تأتي دراسة تعترض على ما حاول الباحثون السابقون إثباته من أنّ التدوين كان مبكّراً مع إغفال فكرة المعارضين للكتابة عند بعض الرواة، وهي دراسة للبريطاني Michael Cook بعنوان: The Opponents of the Writing of Tradition in Early Islam، وبالعربية: "المعارضون لكتابة الحديث في صدر الإسلام"، حيث حاول إثبات أنّ كتابة الحديث لم تكن موجودة بهذه القوّة التي يذكرها هؤلاء العلماء وخاصّة الدكتور فؤاد سزكين، لأنّ د. سزكين حاول في دراسته أن يؤوّل أي معارضة لكتابة الحديث على أنّ المقصود منها الرواية من الكتاب، لا كتابة الحديث نفسها، فكانت دراسة كوك لإثبات وجود المعارضات على كتابة الحديث في عدد من المدن الحديثية كالبصرة والكوفة والمدينة والشام ومصر وبيان تفاوت موقفهم في ذلك، ولكن دون تحليل لأسباب هذا التفاوت أو دوافعه وإنّما أيضاً جاءت عامّة في إثبات المعارضات في القرن الأول والثاني للهجري مقابل الدراسات التي أثبتت الكتابة في نفس الفترة.

الإضافة في دراستي:

جاءت هذه الدراسة كمحاولة لإعادة النظر في هذه المسألة من النظرة الشمولية إلى الجزئية المتخصّصة، حيث حاولت التركيز على مدينة واحدة وهي الكوفة، بغرض الوقوف على مدى نشاطها في الرواية المكتوبة في عصر التابعين، وحجم اعتمادها عليها، مع تفسير العوامل

المؤثرة في ذلك. ولئن بدت هذه الدراسة تتقاطع في بعض أمثلتها مع ما تناوله مايكل كوك وغيره من الباحثين، إلا أنّ غايتها تختلف من حيث المنهج والمقصد؛ فهي لا تسعى إلى إثبات وجود الكتابة أو المعارضة، بل إلى تقدير مستوى النشاط الكتابي نفسه، بما يشمل تلقائيًا الإشارة إلى المواقف المؤيدة والمعارضة دون أن يكون ذلك هو الهدف الأساس. ففي حين أثبت كوك وجود المعارضة للكتابة في الكوفة وغيرها، فإنّ السؤال الأهم الذي تحاول هذه الدراسة مقاربته هو: ما حجم تلك المعارضة مقارنة بالمؤيدين؟ وما مدى اعتماد أهل الكوفة على الرواية المكتوبة فعليًا؟ وما طبيعتها؟ .

كما تدعو الدراسة من خلال الانتقال من الشمولية إلى الجزئية إلى عدم إغفال كلا الأمرين، فالمعارضة موجودة كما الكتابة موجودة أيضاً، ولكن ما أثر ذلك في النهاية على توثيق الروايات، وهل عند إثبات وجود المعارضة يعني ذلك التشكيك في موثوقيّة الروايات؟، وهو ما تحاول الدراسة لفت الانتباه إليه أيضاً.

خطة البحث: قد قسّمت البحث كالآتي:

تمهيد: وفيه آراء العلماء حول بداية كتابة الحديث

1. نشاط الكتابة عند تابعي الكوفة، الدلالات، والأسباب.

1.1. نشاط الكتابة عند تابعي الكوفة

1.2. دلالات أخرى على تأخّر نشاط الكتابة عند تابعي الكوفة

1.3. أسباب تأخّر نشاط الكتابة عند تابعي الكوفة

2. طبيعة كتابة الحديث عند تابعي الكوفة ومدى قوّتها في ضبط الرواة، وفيه مطلبان:

2.1. طبيعة الكتابة عند تابعي الكوفة.

2.2. أثر الكتابة على ضبط الرواية عند أهل الكوفة

الخاتمة وفيها أهمّ النتائج.

تمهيد: آراء العلماء حول بداية كتابة الحديث

اختلف علماء الحديث في تحديد زمن نشاط وتوسّع كتابة الحديث؛ فالمتأخرين من علماء الحديث الذين كان لهم دور في تقعيد علم الحديث وبيان تاريخه وتطوّره ومن ذلك تطوّر تدوينه كأمثال ابن حجر والذهبي وغيرهم كانوا يرون أنّ الكتابة في عصر الصحابة وكبار التابعين لم يزل محدوداً، وإنّما نشطت في أواخر عصر التابعين لا بدايته، بينما يرى العلماء المعاصرين في الوقت الحاضر أنّ الكتابة توسّعت وزاد نشاطها منذ زمن الصحابة وكبار التابعين، مع اتفاقهم على وجود الكتابة أساساً منذ زمن النبوة، وهو أمر لا خلاف فيه، وأنقل في ما يلي أقوال العلماء في ذلك:

ذكر الهروي في كتابه ذمّ الكلام ثلاث طبقات للأمّة وهي طبقة الصحابة، وقدماء التابعين _كبارهم_، ومتأخري التابعين _صغارهم_، ثمّ قال عن هذه الطبقات: "لَمْ يَكُونُوا يَكْتُبُونَ الْحَدِيثَ إِنَّمَا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا لَفْظًا وَيَأْخُذُونَهَا حِفْظًا إِلَّا كِتَابَ الصَّدَقَاتِ وَالشَّيْءَ الْيَسِيرَ الَّذِي يَقِفُ عَلَيْهِ الْبَاحِثُ بَعْدَ الِاسْتِقْصَاءِ "[1]. فإنّ الهروي يثبت بأنّ الكتابة بشكل رسمي الذي يعتمد عليه الرواة في الحفظ والسماع والرواية لم يكن وارداً في عصر الصحابة ولا حتى التابعين، إلّا ما ورد عنهم من كتابات فردية لأطراف أو أجزاء من الحديث.

كما وصف الذهبي عصر صغار التابعين من سنة (143) _ كما هو حدّده_ بأنّه العصر الذي كَثُر فيه التدوين والتصنيف فكَثُرت المصنفات في مكة والمدينة واليمن والكوفة، وأمّا قبل هذا العصر فسائر الأئمة يتكلمون من حفظهم أو من صحف صحيحة غير مرتبّة.[2] وقريب من ذلك يرى ابن حجر أنّ آثار النبي ﷺ لم تكن في عصر أصحابه وكبار تابعيهم مدونة في الجوامع ولا مرتبة لأنّهم نهوا عن ذلك خشية الاختلاط بالقرآن، ثمّ حدث في أواخر عصر التابعين تدوين الآثار وتبويب الأخبار لما انتشر العلماء في الأمصار وكثر الابتداع من الخوارج والروافض ومنكرى الأقدار.[3] وكذلك القاري أكّد أنّ زمن الصحابة وكبار التابعين لم تكن الأحاديث مدوّنة فيها وإنّما ظهر ذلك في آخر عصر التابعين "[4]

فقد اتفق هؤلاء العلماء جميعاً على أنّ الكتابة لم تنشط إلا في أواخر عهد التابعين، وأنها لم تكن بذاك النشاط والقوّة عند كبار التابعين وأواسطها.، وقد وافقهم على ذلك بعض العلماء المعاصرين[5].

إلّا أنّ هناك من المعاصرين من يرى أنّ تدوين الحديث انتشر بقوّة منذ عصر النبي ﷺ؛ فبعضهم قد ذكر أمثلة على كتابة الحديث في عهد النبوة وما بعدها ثمّ أكّد على أنّ السنة دوّنت في القرن الأول _عهد النبي ﷺ وعهد الصحابة الأجلّاء_"[6]

يقول أبو شهبة: "وما أنْ توفي الرسول ﷺ وجاور الرفيق الأعلى حتى كثر عدد من كان يكتب الحديث من الصحابة، وكذلك كتب التابعون وأكثروا "[7]

ويقول الزهراني: "أن التدوين بمعناه الواسع – وهو الجمع – قد بدأ في زمن النبي ﷺ"[8]، وقال أيضاً: " انتشرت كتابة الحديث في جيل التابعين على نطاق أوسع مما كان في زمن الصحابة، إذ أصبحت الكتابة ملازمة لحلقات العلم المنتشرة في الأمصار الإسلامية آنذاك".[9]

وكذلك الشيخ الأعظمي في كتابه دراسات في تاريخ الحديث، قد حاول إثبات كل كتابة وردت عن الصحابة في عهد النبوة وما بعدها، وكذلك عن التابعين؛ لإثبات فكرة أن الكتابة موجودة بكثرة منذ عهد النبوة[10]، وكذلك د. فؤاد سزكين في كتابه تاريخ التراث العربي حيث ذكر العديد من الأمثلة للكتابة في زمن الصحابة والتابعين واعتبرها عادة معروفة في زمنهم[11].

ويقول د.محمد عجاج الخطيب بعد أن ذكر كتابات للصحابة والتابعين: " وهذا يدل على أن الكتابة قد شاعت بين مختلف الطبقات ولم يعد أحد ينكرها في أواخر القرن الأول الهجري وأوائل القرن الثاني. وقد كثرت الصحف والكتب في ذلك الوقت حتى لنرى مجاهد بن جبر (103هـ) يسمح لبعض أصحابه أن يصعدوا إلى غرفته فيخرج لهم كتبه فينسخون منها"[12]

وإنّني أدّعي أنّ سبب هذا الاختلاف بين العلماء المتأخرين والمعاصرين أنّ ما جاء به العلماء المعاصرون كان في إطار الردّ على ما ذكره المستشرقون حول فكرة تناقل الحديث شفويّاً إلى منتصف القرن الثاني؛ لذلك نرى د. الأعظمي في كتابه يقول: "وأمّا ادعاؤهم أن رسول الله ﷺمنع من كتابة أحاديثه وحرق ما كان يكتب... فستأتي حقيقة هذه الادعاءات في الباب الثالث والرابع مفصلة إن شاء الله "[13]، وهما البابان الذي فصّل فيهما وذكر أمثلة الكتابة في تلك الفترة. وكذلك الدكتور محمد عجاج الخطيب حيث حاول الردّ على المستشرقين كأمثال جولد ستهير وسوفاجيه وغيرهم من أنّ التدوين قد بدأ مطلع القرن الثاني[14]، فحاول إثبات وجودها منذ القرن الأوّل، وكذلك حال الدكتور فؤاد سزكين حيث كانت مناقشاته لآراء جولد ستهير واضحة في كتابه، فقد تحدّث عن رأي جولدستهير وأنّه يرى تحرّج المحدّثين من الاحتفاظ بالحديث على شكل مدوّن وأن زمن التدوين بحسب رأيه كان أواخر القرن الثاني والنصف الأول من القرن الثالث[15]. ممّا أدّى بالمعاصرين إلى توسيع فكرة الرواية المكتوبة خاصّة في القرن الأول زمن النبي والصحابة وكبار التابعين.

وفكرة توسّع المعاصرين وتضخيمهم لمسألة الرواية المكتوبة للدفاع عن تاريخ الحديث وكتابته بحثها الدكتور أحمد صنوبر في دراسته: " مرحلة التدوين الرسمي: دراسة في إعادة تأريخ مراحل كتابة الحديث اعتماداً على علم العلل" حيث ركّز في هذه الدراسة على طريقة الباحثين المعاصرين في تاريخ كتابة الحديث، ومثّل على ذلك في مرحلة التدوين الرسمي، ويرى أنّ هناك تضخيماً لفكرة تدوين الحديث المبكّر، يقول في ذلك: " أن التأريخ متأثر ـــفي بعض مباحثه ـــ بحالة الدفاع عن التراث التي سيطرت على الباحثين المسلمين في القرن العشرين أمام الجدل الاستشراقي الإسلامي، وقد سببت حالة الدفاع هذه تضخيماً لبعض مراحل تاريخ الحديث بهدف مواجهة الأفكار الاستشراقية"[16]، وقد فصّل أيضاً في دوافع هذا التضخيم في مبحث خاص.[17]

لذلك كان رأي مايكل كوك أنّ فكرة معارضة كتابة الحديث قوبلت بالإهمال والتهميش من قبل بعض الباحثين الذين سعوا لإثبات قدم التدوين (الكتابة) للدفاع عن موثوقيّة الحديث، وركّز على الأعظمي وسزكين على أنّهم سعوا للتقليل من شأن المعارضة.[18]

وليس الهدف من هذه الدراسة عرض ادّعاءات المستشرقين حول كتابة الحديث ونقدها، بل تتجّه هذه الدراسة إلى محاولة تقويم منهج الرّد عليهم من خلال النظر إلى الإطار الخاصّ لا العامّ، فعلى الرغم من أهمية الدراسات التي سعت إلى إثبات وجود التدوين في وقت مبكر للدفاع عن السنة، إلّا أنّها أهملت جانباً مهمّاً وهو التفاوت بين المدن في نشاط كتابة الحديث، وإغفال الخصوصية المكانية أو الشّخصيّة، ممّا جعله مأخذاً لبعض المستشرقين كما هو الحال عند مايكل كوك عندما اعترض على إغفالهم للمعارضين للكتابة .

وفي هذا البحث أسعى إلى إثبات أنّ هناك تفاوتاً واضحاً بين المدن الحديثية وكذلك الأشخاص في نشاط الكتابة من حيث الاهتمام والحجم ممّا يستدعي التوقف عنده ودراسته بعناية ضمن السياقات المكانية والشخصيّة لا بوصفه ظاهرة عامة فقط.

فعلى سبيل المثال تميّزت المدينة المنورة بكثرة النقول عن الصحابة وكبار التابعين في كتابة الحديث، من ذلك:

-قول كثير بن أفلح: «كُنَّا نَكْتُبُ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ " .[19]

-وقول بشير بن نهيك: " كُنْتُ أَكْتُبُ مَا أَسْمَعُ مِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، فَلَمَّا أَرَدْتُ أَنْ أُفَارِقَهُ، أَتَيْتُهُ بِكِتَابِهِ فَقَرَأْتُهُ عَلَيْهِ، وَقُلْتُ لَهُ: هَذَا سَمِعْتُ مِنْكَ؟ قَالَ: نَعَمْ[20]" .

-وقول ابن جبير: «كُنْتُ أَسِيرُ مَعَ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ، فِي طَرِيقِ مَكَّةَ لَيْلًا، وَكَانَ يُحَدِّثُنِي بِالْحَدِيثِ فَأَكْتُبُهُ فِي وَاسِطَةِ الرَّحْلِ، حَتَّى أُصْبِحَ فَأَكْتُبَهُ"[21].

- وهارون بن عنترة أنّ أباه سأل ابن عباس أن يكتب عنه فرخّص له ولم يكد[22].

-قول عبد الله بن محمد بن عقيل: «كُنَّا نَأْتِي جَابِرَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فَنَسْأَلُهُ عَنْ سُنَنِ، رَسُولِ اللَّهِ ﷺ » [23].

كما أنّ سليمان اليشكري جالس جابراً وكتب عنه صحيفة"[24].

واشتهرت المدينة كذلك بصحائف معروفة كصحيفة علي بن أبي طالب، وجابر بن عبد الله، وبدأ استخدام وصف "صاحب كتاب " في المدينة منذ زمن التابعين فوُصِف بذلك أبو الزناد(ت.129هـ)[25].

وهذه الأمثلة تشير إلى أنّ كتابة الحديث في المدينة ظاهرة واضحة منذ زمن الصحابة وكبار التابعين، وهو بخلاف الكوفة حيث افتقرت إلى هذه الصحف والألقاب والأمثلة الواضحة على الكتابة بين الصحابة والتابعين؛ لذلك جاءت هذه الدراسة للبحث في واقعيّة النشاط الكتابي عند تابعي الكوفة في سياق خاص على أن تكون هناك دراسات أخرى لباقي المدن حتى تتمّ المقارنة بشكل أوضح وأدق.

1. نشاط الكتابة عند تابعي الكوفة، الدلالات، والأسباب.

يُعرض في هذا المبحث معالم النشاط الكتابي عند تابعي الكوفة على اختلاف طبقاتهم وصولاً إلى تحديد بداية الكتابة ونشاطها، مع بيان أقلّ الطبقات نشاطاً للكتابة وأكثرها، بالإضافة إلى بيان الدلالات والإشارات على قوّة الكتابة أو قلّتها، وأسباب ذلك.

1.1. نشاط الكتابة عند تابعي الكوفة

أعرض في هذا المطلب حال نشاط الرواية المكتوبة عند التابعين على اختلاف طبقاتهم فقط وأمّا تحليل أسباب ذلك فهو في مطلب منفصل.

أ. الكتابة عند كبار تابعي الكوفة.

على الرغم من اشتهار مدينة الكوفة في الرواية إلّا أنّنا إذا نظرنا إلى كبار تابعي الكوفة نجد اعتمادهم القويّ على حفظ المرويّات أكثر من اعتمادهم على الكتابة،، فهم لا يرغبون بكتابة الحديث، ويرون أنّه كان يُكره، وأكثر ما ورد ذلك عن التابعي المشهور عبيدة

السلماني(ت62هـ)، فحين سأله ابن سيرين(ت110هـ): أَكْتُبُ مَا أَسْمَعُ مِنْكَ ؟ قَالَ: لَا، قُلْتُ: فَإِنْ وَجَدْتُ كِتَابًا أَقْرَؤُهُ ؟ قَالَ: لَا" [26]، وكذلك إبراهيم النخعي(ت.96هـ) حين قال: "سَأَلْتُ عَبِيدَةَ قِطْعَةَ جِلْدٍ أَكْتُبُ فِيهِ، فَقَالَ: يَا إِبْرَاهِيمُ، لَا تُخَلِّدَنَّ عَنِّي كِتَابًا "[27].

فيظهر عدم رغبة عبيدة في كتابة الحديث، وإن كانت فكرة كتابة الحديث موجودة في هذه الفترة إلا أنّه كان لا يرغب بالاعتماد على الكتاب بحيث يصبح هناك كتاب متداول عن عبيدة السلماني، بدليل قوله "لا تخلّدنّ عني كتاباً"، وقد ورد أنّه هو نفسه كانت له كتابات ولكنّه محاها قبل موته لئلّا يركن إليها من بعده أو يضعها في غير موضعها، يقول النُّعْمَانِ بْنِ قَيْسٍ قَالَ: دَعَا عَبِيدَةُ بِكُتُبِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ فَمَحَاهَا وَقَالَ: أَخْشَى أَنْ يَلِيَهَا أَحَدٌ بَعْدِي فَيَضَعُوهَا فِي غَيْرِ موضعها.[28]

وكذلك الحال عند مسروق بن الأجدع (ت.62هـ)، وعلقمة بن قيس (ت.63هـ)، حيث طلب مَسْرُوق من علقمة أن يكتب له، فأجابه علقمة: "أما علمت أَن الْكتاب يكره؟ قَالَ: بلَى، إِنَّمَا أحفظها ثمَّ أمزقه، قال: فلا بأس"[29]، وكأنّ علقمة بذلك يصف الجوّ العام في الكوفة في زمانهم حيث كان الكتاب يكره إلاّ إن كان ذلك للمساعدة على الحفظ، حيث يحفظ الراوي الحديث بكتابته، ثم يمحوه بعد ذلك، لبقاء فكرة حفظ الصدور، وكذلك كان عاصم بن ضمرة السلولي الكوفي (ت.74هـ) يسمع الحديث فيكتبه فإذا حفظه دعا بمقراض فقرضه.[30]

وأمّا الحارث الأعور (ت65هـ) فقد ورد بأنّ له كتاباً خاصّاً وقع بين يدي تلاميذه وكانوا يروون ما في الكتاب دون السماع من الأعور، ولم يرد أنّ الحارث هو من أعطى الكتاب لتلاميذه، فقد نقل الإمام أحمد بن حنبل حديثاً فيه خطأ حيث قال: "قَالَ عبد الْأَعْلَى عَن ابن الْحَنَفِيَّة عَن عَليّ: " شبه الرّيح" كَأَنَّهُ لم يصححها قلت_ عبدالله بن أحمد_ لأبي: لمْ؟ قَالَ أبي: "وَقع إِلَيْهِ كتاب الْحَارِث الْأَعْوَر"[31]

وكذلك أبو إسحاق السبيعي فإنّه لم يسمع من الأعور سوى أربعة أحاديث، وسائر ما رواه عنه إنّما هو كتاب أخذه، وقد يُفهم من ذلك أنّ الأعور ناول الكتاب لأبي إسحاق[32]، ولكن نقل أحمد بن حنبل قوله: "كان أبو إسحاق تزوج امرأة الحارث الأعور، فوقعت إليه كتبه "[33].

فقد يكون هذا الكتاب للحارث الأعور كتاباً خاصّاً فيه كما هو الحال عند عبيدة السلماني، حيث كان له كتاباً خاصّاً ثمّ أمر بحرقه قبل وفاته، وهذا الكتاب لا يخرج لتلاميذه، ولا يعطيه لهم فهو كتاب شخصي قد يقصد منه صاحبه الاعتماد على حفظ بعض سماعاته، ولكن اختلف الأعور عن عبيدة بأنّ كتابه وصل إلى تلاميذه وكأنّه لم يكن حريصاً كحرص عبيدة ولم يأمر بحرقه أو أنّه لا يرى مانعاً في أن يصل كتابه إلى تلاميذه ويروون منه.

كما أنّنا نرى كتاباً لعبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود(ت.79هـ)، يثبته عنه ابنه معن بن عبد الرحمن، حيث ينقل مِسْعَر قوله: أَخْرَجَ إِلَيَّ مَعْنُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ كِتَابًا، فَحَلَفَ لِي بِاللهِ أَنَّهُ خَطُّ أَبِيهِ فَإِذَا فِيهِ: قَالَ عَبْدُ اللهِ: وَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَشَدَّ عَلَى الْمُتَنَطِّعِينَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ... الحديث"[34]

ممّا يعني أنّ هناك كتاباً لعبد الرحمن رغم منعه أبيه من ذلك، ومن المؤكّد أنّ تلك الكتابات لعبيدة وعبد الرحمن هي كتابات فردية خاصّة لم تظهر لتلاميذهم ولم تُعرض على شيوخهم، ولم يكن لها ذلك الأثر في الرواية عند كبار التابعين ممّا يعني قلّة الاعتماد عليها، ووجود تلك الكتابات لا يعني أنّ الكتابة كانت مقبولة على إطلاقها في هذه الفترة، بل كما ذكرنا فيما سبق فإنّ الغالب على حال كبار التابعين في الكوفة أنّهم كانوا يرفضون فكرة الاعتماد على الكتابة في حفظ الحديث وليس فكرة الكتابة بحدّ ذاتها، بدليل أنّ بعضهم كان يكتب ثمّ يمحو الحديث ولا يرى بأساً في ذلك.

ب. الكتابة عند أواسط تابعي الكوفة.

والأمر عند أواسط تابعي الكوفة لا يختلف كثيراً عن كبارها، فنجد في هذه الفترة من يتفق مع كبار التابعين على كراهيتهم للكتابة، ورأيهم في ذلك كرأي كبارهم، بأنّ الكتابة خاصّة في القرآن دون الحديث، ومن ذلك ما نقله منصور من أنّ إبراهيم النخعي(ت96هـ) كان يكره الكتاب[35].

ويقول ابن عون: رَأَيْتُ حَمَّادًا يَكْتُبُ عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ ، فَقَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَنْهَكَ ؟ قَالَ: إِنَّمَا هِيَ أَطْرَافٌ [36].

وفي هذا دليل على أنّ الكتابة لم يكن منهي عنها، وإنما المنهي عنه هو الاعتماد على الكتاب بشكل كامل، بدليل قول حمّاد (إنّما هي أطراف)، وكأنه أراد الكتابة عن إبراهيم للمساعدة على الحفظ وليس لإدّخاره ككتاب عنده، وهو كما حصل بين شيوخهم من طبقة كبار التابعين علقمة ومسروق أيضاً فيما ذكر سابقاً.

ويؤكّد هذا الكلام ما نقله فضيل بن عمرو الكوفي (ت110هـ) من حوار دار بينه وبين إبراهيم النخعي(ت96هـ)، حيث قَالَ: قُلْتُ لِإِبْرَاهِيمَ: إِنِّي أَجِيئُكَ وَقَدْ جَمَعْتُ مَسَائِلَ فَكَأَنَّمَا تَخَلَّسَهَا اللَّهُ مِنِّي، وَأَرَاكَ تَكْرَهُ الْكِتَابَ فَقَالَ: إِنَّهُ قَلَّ مَا كَتَبَ إِنْسَانٌ كِتَابًا إِلَّا اتَّكَلَ عَلَيْهِ وَقَلَّ مَا طَلَبَ إِنْسَانٌ عِلْمًا إِلَّا آتَاهُ اللَّهُ مِنْهُ مَا يَكْفِيهِ".[37]

فسبب كراهية إبراهيم للكتاب الاتكال عليه، وكأنّ هذه الفكرة بقيت مرفوضة حتى عند أواسط التابعين متأثرين بشيوخهم، فالمنقول عن إبراهيم النخعي أنّه أراد الكتابة عن شيخه عبيدة السلماني، ولكنّه رفض وقال: لا تخلدنّ عني كتاباً[38].

إلّا أنّ هذا لم يكن على عموم تلك الفترة، فهناك من لم يمنع الكتابة، فالبراء بن عازب(ت70هـ) كان أصحابه من التابعين يكتبون عنه ولا يمنعهم من ذلك، يقول عبد الله بن حنش الكوفي (ت111هـ): «رَأَيْتُهُمْ يَكْتُبُونَ عِنْدَ الْبَرَاءِ بِأَكُفِّهِمْ بِالْقَصَبِ»[39]؛ وكذلك موقف الشعبي (ت105هـ) من الكتابة وهو أحد تلاميذ البراء بن عازب(ت70هـ) يختلف

عن موقف إبراهيم النخعي فإنّه كان يحثّ تلاميذه على الكتابة حيث يقول: «إذا سمعت شيئا، فاكتبه ولو على الحائط»[40] وكان يقول أيضاً: " الكتاب قيد العلم"[41]، وقد وُجِد له كتاب خاصّ بالفرائض والجراحات[42] رغم مقولته المشهورة :«مَا كَتَبْتُ سَوْدَاءَ فِي بَيْضَاءَ قَطُّ وَمَا حَدَّثَنِي أَحَدٌ بِحَدِيثٍ فَأَحْبَبْتُ أَنْ يُعِيدَهُ عَلَيَّ»[43] وكأنّه كان يكتب أحاديث دون أحاديث ولغايات معيّنة لعدم حاجته لكتابة جميع الأحاديث وذلك لقوّة حفظه وذاكرته لا لكراهة الكتابة، وهنا يتبيّن أنّ عدم كتابته سببه قوّة ذاكرته وقدرته على الحفظ وعدم حاجته للكتابة أو حتى تكرار الحديث، وليس لكراهية الكتابة، ورغم أنّ إبراهيم النخعي(ت96هـ) أيضاً ورد عنه أنّه لم يكتب شيئاً من الحديث كما قال عن نفسه: "مَا كَتَبْتُ شَيْئًا قَطُّ"[44] إلّا أنّه لم يحثّ طلابه على الكتابة، بل وأنكر عليهم ذلك، فيظهر اختلاف موقف الشعبي وإبراهيم النخعي من الكتابة رغم اتفاقهما بعدم كتابتهما الأحاديث، ورغم تعاصرهما في زمن واحد.

وأمّا سعيد بن جبير (ت95هـ) فقد كان يكتب إلّا أنّ كتاباته كانت خارج الكوفة، فإنّه كان يكتب عن ابن عباس وابن عمر في مكة أو المدينة، يقول في ذلك: "كُنْتُ أَسِيرُ مَعَ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ لَيْلًا، وَكَانَ يُحَدِّثُنِي بِالْحَدِيثِ فَأَكْتُبُهُ فِي وَاسِطَةِ الرَّحْلِ حَتَّى أُصْبِحَ فَأَكْتُبَهُ "[45]، وقوله: " كُنْتُ أَسْمَعُ مِنِ ابْنِ عُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – الْحَدِيثَ بِاللَّيْلِ، فَأَكْتُبُهُ فِي وَاسِطَةِ الرَّحْلِ"[46]، وكثيراً ما ينقل حاله في كتاباته عن ابن عباس: "«كُنْتُ آتِي ابْنَ عَبَّاسٍ فَأَكْتُبُ عَنْهُ»[47]، حتى كانت له الصحيفة المشهورة صحيفة سعيد بن جبير عن ابن عباس، ولكن لم يرد عنه الكتابة داخل الكوفة بشكل عام فشيوخه كانوا من أهل المدينة، ولم يثبت أنه روى عن ابن مسعود أو أصحاب ابن مسعود.

وكذلك الحال في سالم بن أبي الجعد (ت100هـ) فقد ثبتت عنه كتابة الحديث وكان أتمّ حديثاً من إبراهيم النخعي، فحين سأل منصور شيخه إبراهيم: "إِنَّ سَالِمًا أَتَمُّ مِنْكَ حَدِيثًا ؟ قَالَ: إِنَّ سَالِمًا كَانَ يَكْتُبُ"[48]، وهذه الكتابات من سالم قد تكون أيضاً كتابات شخصية فردية لم يناولها لتلاميذه، ولكن المهم في أنّ كتابات سالم بن أبي الجعد قد تكون

خارج الكوفة أيضاً لأنّه أكثر الرواية عن جابر بن عبد الله(ت72هـ)، وقد ثبتت الكتابة عن جابر ﷺ كما هي صحيفته المشهورة فهو من الصحابة الذين أباحوا الكتابة.

والذي يمكن فهمه من الجوّ العامّ في أواسط تابعي الكوفة، أنّ الكتابة كانت مقبولة عند بعضهم ومرفوضة عند آخرين، إلا أنّ الغالب على هذه الفترة قلّة الكتابة وكراهيتها كما هو الحال عند كبار تابعيها.

وعلى اتفاق هذه الطبقة مع طبقة كبار التابعين بقلّة الكتابة، إلّا أنّ الظاهر اختلافهم في طبيعة الكتابة، فقد بدأ في هذه الفترة وجود الكتابة في مجالس الشيوخ كما هو حال مجلس البراء بن عازب فتلاميذه يكتبون عنه الحديث، فضلاً عن حثّهم لتلاميذهم على الكتابة كما ورد ذلك عن الشعبي، وهذا ما لم نجده في طبقة كبار التابعين.

ج. الكتابة عند صغار تابعي الكوفة:

وأمّا طبقة صغار التابعين في الكوفة فإنها تختلف اختلافاً واضحاً عن طبقة كبار التابعين أو أواسطها، إلّا أنّ لهذه الطبقة موقفان كما هو عند أواسط التابعين؛ الأوّل من كان يكره الكتابة ولم يعتمد عليها، والثاني من كان يكتب ويعتمد على الكتاب حتى انتشرت فكرة كتابة الحديث بكلّ صورها، والموقف الأوّل أقلّ وجوداً من الثاني.

فإنّ فكرة كراهية الكتابة والاعتماد عليها ما زالت موجودة في هذه الفترة، فحين سئل جَرِيرٍ يَعْنِي ابْنَ عَبْدِ الْحَمِيدِ، كَانَ مَنْصُورٌ(132هـ)، يَكْرَهُ كِتَابَ الْحَدِيثِ؟ قَالَ: نَعَمْ، مَنْصُورٌ(ت132هـ)، وَمُغِيرَةُ(ت132هـ)، وَالْأَعْمَشُ(ت148هـ)، «كَانُوا يَكْرَهُونَ كِتَابَةَ الْحَدِيثِ»[49]، وقد نقل شعبة قول منصور عن نفسه: " ما كتبت حديثاً قط"[50]، فموقفه من الكتابة موقف شيخه إبراهيم.

هذا الجوّ ما زال قائماً حتى عند صغار التابعين، وإن وردت عن بعضهم الكتابة إلّا أنّ الواضح عدم اعتماد صاحبها عليها، فالأعمش مثلا كما ورد أنه كان ممّن يكره الكتابة، ومع ذلك يقول أبو جعفر الفرّاء: " كَانَ الْأَعْمَشُ يَسْمَعُ مِنْ أَبِي إِسْحَاقَ ثُمَّ يَجِيءُ فِيكْتُبُهُ فِي مَنْزِلِهِ"[51]، ولكن تلك الكتابة من الأعمش من الواضح أنّها كانت قليلة وقد تكون فقط عن أبي إسحاق كما ذُكر وكأنّ تلك الكتابة كانت فقط بسماعات الأعمش عن أبي إسحاق، وأنّها كتابات لحفظ الحديث لا لاعتماده على الكتاب، ويؤكّد ذلك ما قاله العجلي في ترجمته: " إنه ظهر له أربعة آلاف حديث، ولم يكن له كتاب"[52]، فمن الواضح أنّ ما ورد عن الأعمش من كتابة لا يعني اعتماده على كتاب خاصّ فيه سماعاته من شيوخه.

وأمّا الموقف الثاني وهو كتابة الحديث بالاعتماد عليه، بل مع وجود تلك الكتابات في المجالس دون المعارضة في ذلك، وقد وردت صور للكتابة في هذه الفترة مختلفة عمّا قبلها في الاعتماد على الكتاب، كالقراءة من الكتاب والعرض على الشيخ، أو الاعتماد عليه بدلاً من السماع من الشيخ (المناولة)، وغير ذلك من الصور، فإنّها كلّها أصبحت متداولة عند صغار التابعين في الكوفة، فمن ذلك:

يقول الثوري (160هـ): "حدّثني الرضا محمد بن سوقة [53](ت141هـ)، ولم أسمعه"، ثمّ قال بعد ذلك لأصحابه: " أخرج إليكم كتاب خير رجل بالكوفة، فقلنا: يخرج إلينا كتاب منصور، فأخرج إلينا كتاب محمد بن سوقة".[54]

فإنّه لم يسمع من شيخه محمد بن سوقة مباشرة، ومع ذلك كان يقول "حدثني " اعتماداً على الكتاب الذي ناوله إيّاه شيخه محمد بن سوقة (ت141هـ)، وأثنى عليه بأنه كتاب خير رجل بالكوفة، فيظهر أن لشيخه محمد بن سوقة كتاب يعتمد عليه في الرواية والتحديث، وقد ناوله لتمليذه.

وقد نقل إلينا قيس بن الربيع (ت165هـ) طبيعة مجالسهم في الرواية عن شيوخهم في الكوفة تلك الفترة، وأنّهم كانوا يكتبون عنهم دون حرج، حيث يقول في ذلك: "كنا إذا أتينا

المشايخ قدمنا سفيان الثوري فكتب لنا فكان أخفنا كتابة فكان إذا مر بحديث صغير حسن حفظه فلم يكتبه ففطنا له فعزلناه"[55]

فيشير كلام قيس بن الربيع إلى أنّ الكتابة كانت متداولة عندهم في مجالس الشيوخ، حتى إنّهم كرهوا من سفيان الثوري كتابته لأحاديث الطوال دون القصار، وكأنهم يريدون تسجيل كل حديث يسمعونه من الشيوخ في دفاترهم، وفي وصف قيس بن الربيع لطبيعة تلك المجالس دلالة على عدم إنكار شيوخهم ـيعني صغار التابعين في الكوفةـ لكتابة الحديث وكأنّ الأمر أصبح طبيعيّاً .

بل نجد أيضاً وجود القراطيس، وسؤال الشيوخ عمّا فيها، فهذا شريك القاضي (ت 167هـ)، يقول: "قدم علينا سالم الأفطس(ت132هـ) فأتيته ومعي قرطاس فيه مئة حديث فسألته عنها"[56]، وهذا كلّه يشير إلى أنّ شيوخهم من طبقة صغار التابعين لم يمنعوهم من الكتابة، وأنّ الكتابة في مجالسهم أصبحت منتشرة وواضحة.

ويفهم ممّا سبق أنّ فكرة الاعتماد على الكتاب في جمع الحديث وتدوينه بدأت في الكوفة في طبقة صغارها، وهو بخلاف الحال عند كبار تابعي الكوفة وأواسطها حيث لم يرد عنهم ممّن كان يحدّث من كتابه أو يقوم بعرض الكتاب على شيخه، أو مناولة الشيخ كتابه لتلميذه، بل ما ورد عنهم هو الإنكار على تلاميذهم الكتابة، وهو بخلاف حال صغار التابعين.

بناءً على ما سبق يمكن لنا إثبات أنّ انتشار الكتابة وجمع الحديث في الكتب وتدوينها بدأت في الكوفة عند طبقة صغار التابعين، ولم تكن موجودة قبل ذلك إلا بصورة كتابات فردية جدّاً ولم تهدف لجمع الحديث، وهذا الكلام هو الأقرب لما ذهب إليه العلماء المتأخرين كالهروي وابن حجر وغيرهم وهو بخلاف ما ذهب إليه بعض المعاصرين من كثرة التدوين وسرعان انتشارها منذ زمن النبي صلى الله عليه وسلم وما بعد من القرن الأول ومنتصف القرن الثاني.

1.2. دلالات أخرى على تأخّر نشاط الكتابة عند تابعي الكوفة

إضافة إلى ما ذكرناه سابقاً من تأخّر نشاط الكتابة في الكوفة إلى عصر صغار التابعين يمكن الإشارة إلى بعض الدلالات الأخرى على ذلك:

أ. في تراجم تابعي الكوفة لا نجد من قيل فيه بأنّه "صاحب كتاب" حتى في عصر صغار التابعين، وإنّما بدأ إطلاق ذلك على من بعدهم من أتباع التابعين، فقد وُصف بذلك إسرائيل بن يونس(ت160هـ)[57]، وزهير بن معاوية(ت172هـ)، وجرير بن عبد الحميد (ت187هـ)، وأمّا قبل ذلك ممّن هم في عصر تابعي الكوفة فلم يرد عنهم ذلك، وهذا بخلاف حال أهل المدينة فمثلاً وإن كان ما زال نادراً في عصر التابعين ولكن وُصف بذلك أبو الزناد(ت129هـ)[58]، والحال في المدينة ونشاطها الكتابي في عصر تابعيها يختلف عمّا هو في الكوفة، وهذا يحتاج لدراسة خاصة للمقارنة بين تلك المدن في نشاط الكتابة.

ب. عدم وجود صحائف خاصّة لتابعي الكوفة عن صحابة الكوفة، فصحيفة سعيد بن جبير كانت عن ابن عباس، أي كتاباته عن ابن عباس في مكة والمدينة، وهذا يعتبر خارج الكوفة، ولم ترد لتابعي الكوفة أيّ صحائف مثلا عن ابن مسعود أو أبي موسى الأشعري، أو حتى البراء بن عازب الذي كان يسمح بالكتابة في مجلسه، وهو بخلاف ما ورد عن التابعين خارج الكوفة، فهناك عدّة صحف وردت عنهم؛ كصحيفة أبي الصالح السمّان(ت101هـ) وهمام بن منبه(ت131هـ) عن أبي هريرة، وصحيفة كثير بن أفلح(ت70هـ) عن زيد بن ثابت في المدينة، وصحيفة حميد الطويل(ت140هـ) عن أنس بن مالك[59] في البصرة.

فنجد أنّ الصحائف موجودة في عهد التابعين وكتابتهم عن الصحابة في كلّ من المدينة والبصرة، وأمّا في الكوفة فلم نقف إلا على صحيفة ابن جبير وهي كتاباته خارج الكوفة بمكة والمدينة عن ابن عباس .

ج. لم يكن هناك أي أثر في كتب العلل والتراجم للكتابة عند تابعي الكوفة، فالترجيح بين الروايات أو تعليلها، بالإضافة إلى الترجيح بين الرواة لم يكن مبنيّاً على الكتابة في تلك الفترة، بخلاف الحال بعد عصر التابعين، فنجد مثلاً الترجيح كان بين إسرائيل وشريك القاضي بسبب الكتاب، يقول أحمد بن حنبل: " أحمد بن حنبل إسرائيل(ت162هـ) أحب إليك أو شريك(ت167هـ)؟ قال: إسرائيل إذا حدّث من كتابه لا يغادر، ويحفظ من كتابه[60]، وكما سئل أبو حاتم عن زائدة بن قدامة(160هـ)، وزهير بن معاوية(ت164هـ)، فقال: " زهير أتقن من زائدة وما أشبه حديثه بحديث زيد بن أبي أنيسة، وهو أحفظ من أبي عوانة، وهما يوازيان إذا حدثا من كتابيهما لم أبال بأيهما بطشت، وإذا حدثا من حفظهما فزهير أحب إلي"[61]. وهذا الترجيح القائم على إتقان الراوي من كتابه، لم يكن موجوداً في عصر التابعين ممّا يشير إلى تأخّر نشاط الكتابة فيها.

د. قد أورد الأعظمي في كتابه المشهور دراسات في تاريخ الحديث كلّ من كان له كتابات في عصر الصحابة والتابعين، إلا أن الناظر في تلك الكتابات يجد أن أقلّ المدن ذكراً لرواة لهم كتب هي مدينة الكوفة، وهو بخلاف حال مدينة المدينة.[62]

1.3. أسباب تأخّر نشاط الكتابة عند تابعي الكوفة

أ. موقف صحابة الكوفة من الكتابة:

إنّ من أهم العوامل المؤثرة على نشاط تابعي الكوفة الكتابي، هو موقف الصحابة من الكتابة، ومن المعلوم أنّ أكثر الصحابة تأثيراً في الكوفة من جهة الرواية والعلم هو عبد الله بن مسعود، حيث كانت مهمّته الأساسية من الذهاب للكوفة هي التعليم، كما وصفه عمر بن الخطاب ﷺ" معلّماً ووزيراً "[63]. وقد ثبت عن أبي الشعثاء المحاربيّ برواية صحيحة أنّ ابن مسعود كره كتاب العلم[64]، كما نُقل عن عبد الله بن مرداس المحاربي قوله: "سَمِعْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ نَاسًا يَسْمَعُونَ كَلَامِي ثُمَّ يَنْطَلِقُونَ فَيَكْتُبُونَهُ، وَإِنِّي لَا أُحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَكْتُبَ إِلَّا كِتَابَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ".[65] فموقف ابن مسعود ﷺ من كتابة الحديث واضح في رفضه وإنكاره لذلك، وأنّه لا يرى إلا كتابة القرآن.

وهناك روايات نُقلت عن ابن مسعود وهو ينكر على كلّ من يكتب عنه الحديث، حيث نُقل عن ابنه عبد الرحمن بن مسعود قوله: "كُنَّا نَسْمَعُ الشَّيْءَ فَنَكْتُبُهُ، فَفَطِنَ لَنَا عَبْدُ اللَّهِ فَدَعَا أُمَّ وَلَدِهِ، وَدَعَا بِالْكِتَابِ وَبِإِجَانَةٍ مِنْ مَاءٍ، فَغَسَلَهُ" [66]، وكذا موقفه عندما حدّثه أبيه بحديث، فأنكر ذلك عبدالرحمن وقال: ليس كَمَا حُدِّثْتُ، قَالَ: وَمَا عِلْمُكَ؟ قَالَ: كَتَبْتُهُ، قَالَ: فَهَلُمَّ الصَّحِيفَةَ، فَجَاءَ بِهَا، فَمَحَاهَا" [67]، وهي روايات لا يمكن القول بصحتها حيث يرويها مجالد بن سعيد المحاربي عن الشعبي عن عبد الرحمن، وقد ضعّف العلماء مجالد[68]، ولكنّها روايات تؤيّد ما أثبتناه آنفاً من كراهيته ورفضه لفكرة الاعتماد على الكتاب في حفظ الحديث، وقد رُوي عنه أنّه لم يكتب إلا الاستخارة والتشهد وهي رواية ضعيفة أيضاً[69]، ولكن إن صحّت فيبقى هذا لا يعارض موقفه من كراهة كتابة الحديث، فالرواية تُثبت أنّ الأساس عنده عدم الكتابة.

ثمّ يأتي موقف أبي موسى الأشعري(ت42هـ) من الكتابة فقد وردت روايات تشير إلى كراهيته أيضاً، من ذلك ما قاله ابنه أبو بردة «رَآنِي أَبِي أَكْتُبُ فَمَحَاهُ»[70]، وفيما ذكره أيضاً من كتابته لحديث أبيه هو ومن معه من تلاميذ والده، يقول في ذلك: "كَانَ أَبُو مُوسَى يُحَدِّثُنَا بِأَحَادِيثَ، فَنَقُومُ أَنَا وَمَوْلَى لِي فَنَكْتُبُهَا، فَحَدَّثَنَا يَوْمًا بِأَحَادِيثَ فَقُمْنَا لِنَكْتُبَهَا، فَظَنَّ أَنَّا نَكْتُبُهَا، فَقَالَ: أَتَكْتُبَانِ مَا سَمِعْتُمَا مِنِّي؟ قَالَا: نَعَم، قَالَ: فَجِيئَانِي بِهِ، فَدَعَا بِمَاءٍ فَغَسَلَهُ، وَقَالَ: احْفَظُوا عَنَّا كَمَا حَفِظْنَا"[71].

فهذه المواقف أيضاً تشير إلى كراهية أبي موسى للكتابة، إلّا أنّ أثر أبي موسى الأشعري على تابعي الكوفة لم يكن بذاك مقارنة بابن مسعود، حيث كثرت الرواية عنه والملازمة له في الكوفة، يقول مسروق: "حَدثنَا عبد الله وَلَو لم يحدثنا عبد الله من كَانَ يحدثنا"[72]، ففي هذا دليل على أنّ أثر ابن مسعود في الرواية والتحديث أكبر وأعلى من غيره من الصحابة.

ورغم أنّ بعض الصحابة قد نهوا عن الكتابة ثم تراجعوا عن هذا النهي واختلف موقفهم، إلّا أنّ عبد الله بن مسعود قد ثبت عنه موقف واحد وهو النهي أو الكراهية ولم يثبت عنه تراجعه في ذلك[73].

وعليه إذا نظرنا إلى أصحاب ابن مسعود كعبيدة ومسروق وعلقمة نجدهم كرهوا الكتابة وهم من أصحاب ابن مسعود وقد أكثروا عنه الرواية، بينما الحارث الأعور _الذي وصل كتابه لتلاميذه إما لتساهله أو لمناولته_، كان بخلاف ذلك فلم يكن من أصحاب ابن مسعود كما بيّن ذلك ابن المديني حيث قال: "الْحَارِثَ الْأَعْوَرَ كَانَ فِي غَيْرِ طَرِيقِ أَصْحَابِ عَبْدِ اللَّهِ كَانَتْ رِوَايَتُهُ وَمَذْهَبُهُ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَمَا أَعْلَمُهُ رَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ إِلَّا حَدِيثَيْنِ يَخْتَلِفُ عَنْهُ فِي أَحَدِهِمَا"[74]، وإن كان بعضهم قد عدّه من أصحاب ابن مسعود، ولكنّه قليل الرواية عنه بالمقارنة مع عبيدة ومسروق وعلقمة؛ لذلك قد يعود سبب تساهل الأعور في كتابه أنّه لم يكن من أصحاب ابن مسعود كما هو حال عبيدة وغيره.

وكذلك الحال في سالم بن أبي الجعد الذي كان يكتب بخلاف إبراهيم النخعي فإنّه لم يلق ابن مسعود بحسب ما قاله ابن المديني[75]، فما رواه عن ابن مسعود يعدّ من المرسلات، ولم يكن له روايات عن أصحاب ابن مسعود إلا القليلة جدّا، حتى إنّ المزي في كتاب تهذيب الكمال لم يذكر مسروق وعلقمة من شيوخ سالم، ولعلّ هذا السبب هو الفارق بينه وبين إبراهيم النخعي، فضلاً عن أنّ كتاباته هو وابن جبير كانت بالمدينة عن ابن عباس وجابر وهم ممّن يقبلون الكتابة، وهذا يؤكّد فكرة تأثير الصحابة على التابعين في كتابة الحديث.

كما أنّنا أثبتنا قبول الشعبي للكتابة وحثّ تلاميذه على ذلك، وكان من تلاميذ البراء بن عازب الذي لم يمنع الكتابة بل كانت له مجالس يكتب فيها تلاميذه ما سمعوه منه، بينما كان إبراهيم النخعي من تلاميذ أصحاب ابن مسعود الذي ثبت عنهم كراهيتهم للكتابة.

وإذا كان عبد الله بن مسعود هو أكثر الصحابة تأثيراً، فإنّ لِقِدَم وجوده في الكوفة دور أيضاً بعدم انتشار الكتابة في ذاك الوقت، فقد كان في الكوفة في وقت مبكّر جدّاً وهذا الوقت لم يكن هناك الحاجة الكبيرة لكتابة الحديث.

وأمّا نزول غيرهما من الصحابة كأمثال علي بن أبي طالب (40هـ)، والمغيرة بن شعبة (ت50هـ)، والبراء بن عازب (ت72هـ)، وغيرهم، وهؤلاء ممّن لم يرد عنهم قولاً في إنكار الكتابة، بل روي عن علي بن أبي طالب قبوله الكتابة واحتفاظه بالصحيفة[76]، وقوله لطلابه: " قيّدوا العلم"[77]، وكما نقلت سابقاً عن مجالس البراء كيف كان طلابه يكتبون عنه الحديث، ومع ذلك لم نجد لهم أثراً في كتابة الحديث، وقد يعود ذلك إلى أنّ نزولهم كان في أحداث الفتنة، وانشغالهم في تلك الأمور السياسية، وعدم استقرار الوضع السياسي آن ذاك، فلم يكن من علي بن أبي طالب حال وجوده في الكوفة أن يكون له مجالس كمجالس عبدالله بن مسعود، إلّا أنّه بعد ذلك بدأت تظهر الكتابة في مجالس هؤلاء الصحابة كالبراء بن عازب ولكن ما زالت قليلة أيضاً، وبقي الأمر حتى بدايات عصر صغار التابعين؛ لذلك أرى أنّ أهم الأسباب هي تأثّر التابعين بموقف صحابتهم الكرام، والسير على منهجهم بعدم رغبتهم بالكتابة والاعتماد على حفظ الصدور.

والإنكار كما ورد عنهم لم يكن في الكتابة بحدّ ذاتها، بل بالاعتماد على كتاب مدوّن يحفظ جميع مرويّات وسماعات الراوي والتحديث منه، وأمّا كتابتها للحفظ فلا يرون بأس في ذلك بدليل ورود كتابات خاصّة عند بعضهم إلّا أنّها لم تخرج لتلاميذهم، بل بعضها قد حرق أو مُحيَ مع وفاة صاحبها، وهناك كتابات كانت خاصّة في أطراف من الحديث ويتمّ محوها بعد حفظها، فالكتابة كانت في هذه الفترة خاصّة جدّا ولم يقصد منها جمع الحديث.

ب. مكانة الرواية الشفوية والخوف من الاتّكال على الكتاب.

وهذا السبب صرّح فيه كبار التابعين الذين كرهوا الاعتماد على الكتاب كما نقلت عنهم ذلك فيما سبق، حيث كان يكره إبراهيم النخعي ويقول: "إِنَّهُ قَلَّ مَا كَتَبَ إِنْسَانٌ كِتَابًا إِلَّا اتَّكَلَ عَلَيْهِ"؛ فكان لهذا السبب دور مهم في تأخّر كتابة الحديث عند الكوفيّين، فما زالوا يشعرون بأهميّة الحفظ ومكانته وما زالت الشفوية مهيمنة عليهم.[78]

ج. عدم الحاجة للكتابة حتى عصر صغار التابعين

إنّ طبيعة عصر كبار التابعين وأواسطها لم تكن بحاجة ماسّة للكتابة، فقد كان الغالب على طبيعة الرواة في تلك الفترة المبكّرة الحفظ وقوّة الذاكرة؛ لذلك أساساً نرى أنّ وجود الكتابة في عصر كبار التابعين وأواسطها يعتمد على كتابة أجزاء وأحاديث معينة أو قليلة ثم يتمّ محوها، وهذا يشير إلى أنّ الكتابة كانت مجرّد أداة إعانة في بعض الأحيان وعند بعض الرواة لا يتجاوز أمرها ذلك، كما أنّ تعليل الصحابة والتابعين لكراهية الكتابة في تلك الفترة يؤيّد عدم الحاجة إليها، فلو كانت الكتابة في تلك الفترة تحفظ الحديث بشكل جيّد لما رأوا كراهيتها واختلاطها بالقرآن، بل كانوا يرون خلاف ذلك بأنّ الكتابة ستكون سبباً في الخلط وعدم الحفظ .

د. التحفظ من الكتابة بسبب انتشار الوضع في الحديث

مدينة الكوفة تحديداً قد انتشر فيها الوضع والكذب في الأحاديث أكثر من غيرها من المدن الحديثية، يقول الخطيب البغدادي: " والكوفيون كالبصريين في الكثرة غير أن رواياتهم كثيرة الدغل قليلة السلامة من العلل "[79]، وقد يكون هذا سبباً في تحفّظ تابعي الكوفة من الكتابة حتى لا يؤدّي ذلك إلى اعتماد كتب مزوّرة وغير صحيحة تنتشر بين الرواة دون تنقيح أو تثبّت سيّما مع الفتن الحاصلة في تلك الفترة، وقد ذكر الدكتور محيي الدين من أسباب المعارضة الخوف من التصحيف أو التحريف، أو تساهل الرواة بالكتابة[80]، فمن باب أولى أن يكون التحفّظ في الكوفة خاصّة لكثرة انتشار الوضع وسهولة الدسّ والتزوير في الروايات.

2. طبيعة كتابة الحديث عند تابعي الكوفة ومدى قوّتها في ضبط الرواة

نعرض في هذا المبحث خلاصة طبيعة الرواية في عصر التابعين في جميع فتراتها هل كان الغالب عليها الرواية الشفوية أم المكتوبة، ثمّ بعد ذلك نحاول فهم أيّهما الأقوى الرواية الشفوية أم المكتوبة من خلال ما ثبت عن تابعي الكوفة.

2.1. طبيعة الكتابة عند تابعي الكوفة.

أثبتنا في المبحث السابق أنّ الكتابة كانت موجودة في جميع فترات عصر التابعين إلّا أنّ وجودها وطبيعتها تختلف من فترة لأخرى، ونحاول في هذا المطلب بيان طبيعة تلك الكتابة في كل فترة من تلك الفترات:

أ. طبيعة الكتابة عند كبار التابعين

إنّ الكتابة في هذه الفترة كانت قليلة جدّاً بالنسبة لما بعدها من الفترات وقد بيّنا أسباب ذلك، إلّا أنّ طبيعة الكتابة في هذه الفترة تقتصر على الكتابات الفردية للأشخاص، كما أنّها تقتصر على أطراف من سماعات المحدّث وليس كلّ ما سمع، فلم يرد عن كبار تابعي الكوفة من كان له كتاب خاص يشمل على كلّ ما سمع، بل ثبت عنهم كتابة الحديث ثم محوه، وإنكار عبيدة على إبراهيم في كتابة الحديث وقوله: " لا تخلدّن عنّي كتاباً" ، يؤيد فكرة عدم وجود كتاب يشمل على جميع أحاديث الشيخ يحتفظ فيه الراوي، كما أنّ فكرة الكتابة في مجالس الشيخ لم ترد في تلك الفترة.

وخلاصة الأمر أنّ طبيعة الرواية المكتوبة في عصر كبار تابعي الكوفة تقتصر على أطراف من الأحاديث، ولا تشمل على كل سماعاته، كما أنّ الكتاب في تلك الفترة هو كتاب فردي خاص بصاحبه يحفظ فيه شيء من الأحاديث ولا يعرضه على تلاميذه ولا يروي منه الحديث، كما هو الحال في كتاب عبيدة السلماني الذي أمر بحرقه قبل موته، ولم يرد عنهم الكتابة في مجالس الشيخ.

ب. طبيعة الكتابة عند أواسط تابعي الكوفة

لقد ثبت في تلك الفترة موقفان للتابعين؛ أحدهما كراهية الكتابة، والآخر جوازها، والذي يمكن فهمه من طبيعة الكتابة عند من يرى جوازها، أنّ الكتابة كانت مسموحة في مجالس الشيخ، كما ثبت ذلك في مجالس البراء بن عازب حيث يكتبون عنه الحديث، فقد أصبح سماع الحديث من الشيخ وكتابته للحديث مباشرة والاعتماد عليه دون محو تلك الأحاديث وارداً ممكناً في تلك الفترة، وما ورد عن سالم بن أبي الجعد وابن جبير يؤيّد ذلك، فإنّ سالماً يعتمد على الكتاب في حفظ الحديث، وابن جبير يكتب كل ما كان يسمعه من ابن عباس، إلّا أنّ كتاباتهم كانت خارج الكوفة .

وخلاصة الأمر أنّ فكرة تدوين الحديث والاعتماد عليه في كتاب خاص للراوي أصبحت فكرة ممكنة عند أواسط تابعي الكوفة، ولكنّها كانت قليلة جدّاً فلم نستطع إثباتها إلّا في مجالس البراء بن عازب، وغير ذلك كان خارج الكوفة، والسبب في ظنّي أنّ فكرة كراهية الكتابة في تلك الفترة ما زالت قائمة عند أصحاب ابن مسعود ومؤثّرة على أواسط تابعي الكوفة.

ج. طبيعة الكتابة عند صغار تابعي الكوفة

أمّا عن طبيعة الكتابة في فترة صغار تابعي الكوفة، فقد اختلف اختلافاً واضحاً عمّا قبله، حيث نجد أنّ الكتابة في هذه الفترة توسّعت وانتشرت، حتى بات هناك الكتب الفردية التي يمكن عرضها على الشيوخ، أو الكتب التي يقوم الشيخ بمناولتها لتلميذه، فأصبحت فكرة المناولة، العرض، والقراءة، متداولة بشكل طبيعي في هذه الفترة، ممّا يعني أنّ فكرة كتابة أطراف الحديث أو الكتابات الشخصية الخاصة في الراوي انتقلت في عصر صغار التابعين إلى فكرة كتابة جميع سماعات الراوي عن الشيخ، أو حتى إن لم يسمع الحديث فقد أتيحت له فرصة قراءة كتاب الشيخ والاعتماد عليه في الرواية، وأصبح الكتاب جزءاً مهمّاً في الرواية أو التحديث، وأصبح الرواة يعرضون كتبهم للتصحيح في ما بينهم، ولم يعد هناك حاجة لمحو الحديث بعد كتابته لقوّة قبول فكرة الكتابة والاعتماد على الكتاب في هذه الفترة.

2.2. أثر الكتابة على ضبط الرواية عند أهل الكوفة

ثبت في ما سبق أن الرواية الشفوية كانت أكثر اعتماداً في فترة كبار التابعين وأواسطهم، وهو بخلاف حال صغار التابعين، ويبقى عندنا سؤال: أيّهما أقوى الرواية الشفوية أم المكتوبة؟

ويمكن الإجابة عن ذلك من خلال المقارنة بين الرواة الذين اعتمدوا على الكتاب وبين من لم يعتمد على الكتاب، فمثلا في فترة كبار التابعين، نرى أنّ عبيدة السلماني، ومسروق، وعلقمة، لم يعتمدوا على الكتاب، فكانت رواياتهم شفوية، وهؤلاء الثلاثة من أقوى حفّاظ الكوفة وأضبطهم للرواية، وهو أمر لا يخفى على كلّ من يدرس رواة الكوفة في تلك الفترة، بينما نجد الحارث الأعور الذي وُجد له كتاب في تلك الفترة وهي من الحالات النادرة، قد تُكلّم في حفظه وضبطه، بل وفي عدالته، فقد ضعّفه ابن معين، وكذّبه الشعبي وابن أبي خيثمة وابن المديني، وتركه ابن مهدي[81].

وفي فترة أواسط التابعين نجد الشعبي وإبراهيم النخعي من رؤوس الحفظ في تلك الفترة، وقد ثبت عنهم عدم الكتابة البتّة والاعتماد على الحفظ، بينما كان سالم بن أبي الجعد يعتمد على الكتاب كما نقل في المبحث السابق فتميّز بإتمام الحديث بسبب كتاباته، وذلك ظاهر في سؤال منصور لإبراهيم النخعي: "إِنَّ سَالِمًا أَتَمُّ مِنْكَ حَدِيثًا ؟ قَالَ: إِنَّ سَالِمًا كَانَ يَكْتُبُ"[82]، فإنّ سالماً كان أتمّ للحديث من إبراهيم بسبب الكتابة، أي أنّه كان يجيء بالحديث تامّاً كاملاً لأنه كان يكتب، بينما كان إبراهيم يختصر الحديث لاعتماده على الحفظ، ولكن هذا لا يعني أنّ سالماً أثبت أو أضبط للحديث من إبراهيم فكلاهما ثقتان.

وأمّا في صغار التابعين فنجد مثلاً المغيرة والأعمش ومنصور بن المعتمر ممّن ثبت عنهم كراهية الكتابة ولم يعتمدوا على الكتاب في الرواية، إلّا أنّهم كانوا من أكبر وأقوى الحفّاظ المتقنين في عصرهم، بينما محمد بن سوقة شيخ الثوري الذي كان له كتاب يعتمد عليه في الرواية فهو لم يكن كثير الحديث وقيل عنه ثقة مرضي[83]، بل قال عنه أبو حاتم: "صالح الحديث"[84]، ممّا يعني أنّه ليس بأقوى من الأعمش ومنصور وغيرهم رغم أنه كان صاحب كتاب.

بناءً على ما سبق يمكن القول أنّ الرواية الشفوية ليست بأضعف من الرواية المكتوبة، وأنّ الكتابة لا يعني قوّة الرواية، بل ظهر ممّا سبق أنّ أئمة الحديث وكباره من تابعي الكوفة كانوا حفّاظاً لا كُتّاباً، وقد نقلوا روايتهم عن شيوخهم بكامل الضبط والإتقان، ونقلها عنهم كذلك تلاميذهم بالطريقة ذاتها، ولم يكن من أئمة النقد إلّا إثبات قوّة حفظهم ومتانتهم في رواية الحديث، بل وجدنا ممّن اعتمد على كتابه كان أقلّ حظّاً بتزكية النقّاد له.

بالتالي فإنّه لا يوجد عندنا إشكال بأن نثبت فكرة أنّ الحديث ما زال ينقل شفويّاً حتى النصف الأول من القرن الثاني في بعض المدن الحديثية، فرغم شفويّة الحديث إلّا أنّه منقول بألسنة حفّاظ لا يمكن إنكار مكانتهم العالية في الحفظ والإتقان، وهذا الأمر قد لفت إليه أيضاً الدكتور أحمد صنوبر في كتابه من النبي إلى البخاري حيث يرى أنّه لا أثر في إثبات الرواية المكتوبة على نقد الرواية فالعبرة بصحّة الرواية بغضّ النّظر عن طريقة نقلها وروايتها[85]،كما أنّه يرى أيضاً أنّ هناك فرق بين تقرير جواز الكتابة في القرون الأولى وبين الإخبار بأنها كانت الركيزة الأساسية في النقل، فالأول طبيعي بخلاف الثاني[86]، وأنّ الأخبار لو جاءت بأنّ الكتابة كانت منتشرة أكثر من الحفظ لحام حولها شكّ كبير، لأنّ أداوت الكتابة لم تكن متوافرة بشكل كبير حتى بداية الربع الثاني من القرن الثاني حين دخل على العرب صناعة الورق[87]، وهذا كلّه يقتضي ضرورة الانتقال من السياق العام إلى الخاص عند تأريخ ظاهرة تدوين الحديث.

الخاتمة:

بعد هذا التحليل لمسألة كتابة الحديث ونشاطها عند تابعي مدينة الكوفة وتركيزها على ضرورة مراعاة السياقات الخاصّة وعدم التعميم، يمكن القول إنّ نشاط الكتابة عند تابعي الكوفة كان قليلاً ومحدوداً عند كبار التابعين وهو بخلاف ما نراه في المدينة، وأنّ هناك اختلافاً وقع بين طبقات تابعي الكوفة، ويمكن إجمال النتائج بما يلي:

1-هناك اختلاف في النشاط الكتابي بين طبقات تابعي الكوفة؛ أنشطها كانت طبقة صغار التابعين، وأقلّها نشاطاً طبقة كبار التابعين.

2-الكتابة عند كبار تابعي الكوفة تقتصر على أطراف من الحديث، والكتب الموجودة في تلك الفترة هي كتب فردية وخاصّة جدّاً، فلا نجد من يعرض كتابه أو يناوله لتلميذه.

3-الكتابة عند صغار تابعي الكوفة تشمل جميع صور الكتابة، الكتابات الفردية، والكتابات في مجالس الشيوخ مع جميع التلاميذ، كما اعتمد على الكتاب في الرواية والتحديث فظهرت فكرة العرض على الشيخ ، والمناولة وغيرها.

4-النشاط الكتابي في طبقة أواسط التابعين في الكوفة كانت في حالة متوسّطة تماثل طبقة كبار التابعين من جهة قلّة النشاط، وتماثل طبقة صغار التابعين من جهة طبيعة الكتابة، حيث لم تقتصر هذه الطبقة على الكتابات الشخصية فقد أُتيحت الكتابات في مجالس الشيوخ لجميع التلاميذ ولكن لم تنتشر كثيراً وكانت محدودة مقارنة بطبقة صغار التابعين.

وقد بيّنت الدراسة أسباب هذا التأخر حيث يعود إلى تأثّر التابعين من طبقة الكبار والأواسط برأي عبد الله بن مسعود من الكتابة، وتمسّكهم بالرواية الشفوية وخوفهم من الاتّكال على الكتب، فضلاً عن عدم الحاجة ماسّة للكتابة مع قوّة الذاكرة خاصّة في فترة كبار التابعين، كما أنّ وضع الكوفة آنذاك وكثرة الفتن والوضع في الأحاديث يمنعهم من التساهل في كتابة الروايات خوفاً من الدسّ والتزوير.

وبناءً على هذه النتائج أكّدت الدراسة أنّه لا إشكال في إثبات غالبية الرواية الشفوية على الكتابية حتى نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني في بعض المدن الحديثية، حيث أظهرت الدراسة من خلال الرواة الحفاظ الأثبات في مدينة الكوفة بأنّ الرواية المكتوبة لا تعتبر أقوى وأضبط من الرواية الشفوية، وإنّما أساس تلك القوّة أو الضبط يعود إلى الراوي نفسه فيما يرويه شفويّاَ أو كتابيّاً، وليس إلى طبيعة الرواية في حدّ ذاتها.

وقد أظهرت هذه الدراسة أنّ حركة النشاط الكتابي في الكوفة لم تكن مبكرة بالقدر الذي أشار إليه المعاصرون، ممّا يعزّز رأي المتأخرين في هذه المدينة على الأقل. إلا أن مقارنة ذلك بما اشتهر في المدينة مثلاً يكشف لنا أنّ ظاهرة كتابة الحديث نشأت متفرّقة بين المدن ممّا يتطلّب دراسة كل مدينة على حدة.

التوصيات:

وتوصي الدراسة بمزيد من البحث في دراسة حركة التدوين في كل مدينة من المدن وفي كل زمن من الأزمنة حتى القرن الثالث الهجري، وصولاً إلى نتائج أكثر دقّة في قضية تدوين الحديث.

.قائمة المصادر والمراجع:

-أحمد بن حنبل، أبو عبد الله الشيباني، العلل ومعرفة الرجال رواية المروذي، الرياض: دار الخاني، 2001م.

-الأعظمي، محمد بن مصطفى، دراسات في الحديث وتاريخ تدوينه، المكتب الإسلامي، 1400هـ: 1980م.

-ابن أبي حاتم، محمد بن عبد الرحمن الرازي، الجرح والتعديل، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1952م.

-ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، بيروت: دار المعرفة، 1379 هـ.

-ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، تقريب التهذيب، سوريا: دار الرشيد، 1986م.

- الخطيب البغدادي، أحمد بن علي، تقييد العلم، بيروت: إحياء السنة النبوية، د. ت.

- الخطيب البغدادي، أحمد بن علي، تاريخ بغداد، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2002م.

- الخطيب البغدادي، أحمد بن علي، الجامع لأخلاق الراوي، الرياض، مكتبة المعارف، د.ت.

-الخطيب، محمد عجاج بن محمد ، السنة قبل التدوين، بيروت: دار الفكر، 1980م.

-ابن أبي خيثمة، أبو بكر أحمد، التاريخ الكبير، القاهرة: دار الفاروق، 2006م.

-الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن، المسند، السعودية: دار المغني، 2000م.

-دوزنلي، د. محيي الدين، HADİS KİTÂBETİ KARŞITLIĞININ TARİHÎ ARKA PLANI، مجلة Diyanet İlmî Dergi، مج 59، ع. 2، سنة 2023م.

-الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام، دار الغرب الإسلامي، 2003م.

-الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، تذكرة الحفاظ، بيروت: دار الكتب العلمية، 1998م.

-الزهراني، محمد بن مطر، تدوين السنة نشأته وتطوره من القرن الأول إلى نهاية القرن التاسع، السعودية: دار الهجرة، 1996م.

-أبو زهو، د. محمد محمد، الحديث والمحدثون، دار الفكر العربي، 1378هـ.

-سزكين، د. فؤاد، تاريخ التراث العربي، السعودية: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1991م.

-ابن سعد، أبو عبد الله محمد البغدادي، الطبقات الكبرى، بيروت: دار الكتب العلمية، 1990م.

-أبو شهبة، محمد بن محمد، دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين، مكتبة السنة، 1989م.

-ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد العبسي، المصنف، الرياض: مكتبة الرشد، 1409هـ.

-الصالح، د. صبحي إبراهيم، علوم الحديث ومصطلحه، بيروت: دار العلم، 1984م.

-صنوبر، د. أحمد عبد الجبار، من النبي إلى البخاري دراسة في حركة رواية الحديث ونقده في القرون الثلاثة الأولى، عمّان: دار الفتح، 2021م.

-صنوبر، د. أحمد عبد الجبار، مرحلة التدوين الرسمي: دراسة في إعادة تأريخ مراحل كتابة الحديث اعتماداً على علم العلل، مجلة recep tayyip erdogun، عدد 20، 2021م.

-ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله القرطبي، جامع بيان العلم وفضله، السعودية: دار ابن الجوزي، 1994م.

-العجلي، أبو الحسن أحمد بن عبد الله، الثقات، السعودية: مكتبة الدار ، 1985م.

-العمري، د. أكرم ضياء، بحوث في تاريخ السنة المشرفة، بيروت: بساط، د.ت.

-القاري، أبو الحسن نور الدين الملا، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، بيروت: دار الفكر ، 2002م.
-محمود، عبد الحليم، السنة ومكانتها في التشريع، بيروت: المكتبة العصرية، د.ت.
-ابن المديني، علي بن عبد الله السعدي، العلل والسؤالات، بيروت: المكتب الإسلامي، 1980م.
-المزي، يوسف بن عبد الله، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1980م.
-ابن معين، أبو زكريا يحي بن معين البغدادي، من كلام أبي زكريا يحي بن معين، دمشق: دار المأمون، د. ت.
-الهروي، أبو إسماعيل محمد بن عبد الله، ذم الكلام وأهله، المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، 1998م.

[1] الهروي، *ذم الكلام وأهله*، 4:40

[2] الذهبي، *تاريخ الإسلام*، 3:776

[3] ابن حجر، *هدي الساري*، 1:6

[4] القاري، *مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح*، 1:17

[5] انظر: د. أكرم العمري، *بحوث في تاريخ السنة المشرفة*، 296-299، ومحمد أبو زهو، *الحديث والمحدثون*، 127.

[6] عبد الحليم محمود، *السنة ومكانتها من التشريع*، 49

[7] أبو شهبة، *دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين*، 22

[8] الزهراني، *تدوين السنة نشأته وتطوره من القرن الأول إلى نهاية القرن التاسع*، 73

[9] المصدر السابق، 83

[10] الأعظمي، *دراسات في تاريخ الحديث*، 92-325

[11] فؤاد سزكين، *تاريخ التراث العربي*، 131

[12] محمد عجاج الخطيب، *السنة قبل التدوين*، 326

[13] الأعظمي، *دراسات في تاريخ الحديث*، 36

[14] انظر: الخطيب، *السنة قبل التدوين*، 375 –381

[15] انظر: فؤاد سزكين، *تاريخ التراث العربي*، 131 –118

[16] صنوبر، *مرحلة التدوين الرسمي: دراسة في إعادة تأريخ مراحل كتابة الحديث اعتماداً على علم العلل*، (مجلة recep tayyip erdogun، 2021م)، ص196

[17] المرجع السابق، 213-215

[18] Michael Cook،The Opponents of the Writing of Tradition in Early Islam ، الدراسة منشورة عالانترنت دون بيانات لاسم المجلة أو دار النشر، والمقال مقسم لفقرات، وكان كلامه السابق في الفقرة رقم 6 و7 .

[19] الخطيب البغدادي، *تقييد العلم*، 102

[20] الدارمي، *السنن*، المقدمة، باب من رخص كتابة العلم، ح511

[21] المصدر السابق، ح516

[22] المصدر نفسه، ح521

[23] الخطيب البغدادي، *تقييد العلم*، ص103

[24] ابن حجر، *تهذيب التهذيب*، 4: 215

[25] ابن أبي خيثمة، *التاريخ*، 2:265

[26] الدارمي، *المسند*، ح486، وإسناد الحديث صحيح حيث رواه حماد بن زيد عن ابن عون عن ابن سيرين وكلهم من الثقات، وشاركه وكيع في الرواية عن ابن عون أخرج روايته ابن أبي شيبة في *المصنف*، كتاب الأدب، في الرجل يجد الكتاب يقرؤه أم لا، ح26830

[27] المصدر السابق، ح477، وإسناد الرواية صحيح حيث يرويها ثلاثة من الثقات عن إبراهيم وهم:

-الحكم بن عتيبة أخرجها الدارمي في مسنده، ح473و 478، وكذلك ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الأدب، من كان يكره كتاب العلم، " ثقة ثبت فقيه إلا أنه ربما دلس" انظر: تقريب التهذيب، 175

-المغيرة بن مقسم، أخرج روايته ابن أبي شيبة، كتاب الأدب – من كان يكره كتاب العلم، ح26973، " ثقة متقن إلا أنه كان يدلس ولا سيما عن إبراهيم" انظر: *تقريب التهذيب*، 453

-إسماعيل بن رجاء، أخرج روايته الدارمي في مسنده، ح477، "ثقة تكلم فيه الأزدي بلا حجة" انظر: *تقريب التهذيب*، ص107

[28] ابن سعد، *الطبقات الكبرى*، 6:153، والنعمان بن قيس وثّقه ابن معين وقال عنه أبو حاتم صالح الحديث " انظر: *الجرح والتعديل*،8:466، وقد رواه عن النعمان ابن مهدي، وعبثر بن القاسم: انظر"*جامع بيان العلم وفضله*، ح364، والثوري: انظر " *تقييد العلم*، 61، وابن مهدي: انظر" *تاريخ ابن أبي خيثمة*، ح4166. وكلهم من الثقات .

[29] إسناد الرواية صحيح حيث رواها الأعمش عن إبراهيم، وقد رواها عن الأعمش عثّام بن علي: انظر " *جامع بيان العلم وفضله*، ح359، ووكيع: انظر " *تقييد العلم*، 58، والعجلي في الثقات 2:147. فأمّا وكيع فهو مشهور بثقته وحفظه، وأما عثّام فهو صدوق: انظر" *تقريب التهذيب*، 382.

[30] انظر: الخطيب البغدادي، *تقييد العلم*، 59. إلا أنّ في إسناده عقبة بن أبي حفصة عن أخيه ولم أستطع الوقوف عليهما في تراجم الرواة.

[31] أحمد بن حنبل، العلل ومعرفة الرجال، 3:435

[32] العجلي، *الثقات*، 366

[33] الذهبي، *تاريخ الإسلام*، 3:474

[34] الدارمي، *المقدمة*، 1:250، وأبو يعلى، *المسند*، ح5022، والطبراني، *المعجم الكبير*، ح10367، كلهم عن أبي أسامة وهو حمّاد بن سلمة عن مسعر بن كدام عن معن بن عبدالرحمن، فإسناده صحيح.

[35] الدارمي، *المسند*، ح480. بإسناد صحيح.

[36] المصدر السابق، ح473، بإسناد صحيح.

[37] ابن سعد، *الطبقات الكبرى*، 6:271، إسناده حسن ففيه عبد ربه بن نافع أبو شهاب الحناط اختلف العلماء في توثيقه فمنهم من وثّقه ومنهم من قال لا بأس به، "انظر: *تهذيب الكمال*، 16:485."

[38] سبق بيانه

[39] الخطيب البغدادي، *تقييد العلم*، 105، إسناده حسن فعبد الله بن حنش لا بأس به " انظر: *تاريخ الإسلام*، 3:257.

[40] الرامهرمزي، *المحدث الفاصل*، 1:367، بإسناد صحيح.

[41] الخطيب البغدادي، *تقييد العلم*، 99، بإسناد حسن ففيه أبو روق وهو عطية بن الحارث وهو صدوق " انظر: *تقريب التهذيب*، 393.

[42] الخطيب اليغدادي، *تاريخ بغداد*، 14:143

[43] الدارمي، *المسند*، ح499، بإسناد حسن ففيه محمد بن فضيل وهو صدوق " انظر: *تقريب التهذيب*، 502".

[44] الخطيب البغدادي، *تقييد العلم*، 270، بإسناد صحيح.

[45] الدارمي، *المسند*، ح517، بإسناد صحيح.

[46] المصدر السابق، ح512، إسناده حسن ففيه طارق بن عبد الرحمن البجلي وهو صدوق له أوهام "انظر: *تقريب التهذيب*، ص281".

[47] ابن سعد، *الطبقات الكبرى*، 6:275

[48] الدارمي، *المسند*، ح492، بإسناد صحيح.

[49] الخطيب البغدادي، *تقييد العلم*، 48 بإسناد صحيح.

[50] الذهبي، *تذكرة الحفاظ*، 1:107

[51] الخطيب البغدادي، *تقييد العلم*، 112، بإسناد حسن، ففيه شريك بن عبدالله النخعي فهو ثقة ولكن تغيّر حفظه بعد القضاء "انظر: *تقريب التهذيب*، 266

[52] العجلي، *الثقات*، 204

[53] لم أقف على تصنيفه في طبقة صغار التابعين عند الذهبي أو السيوطي، ولكن ذكره ابن سعد في الطبقة الرابعة مع طبقة منصور بن المعتمر لذلك اعتمدته في هذه الطبقة.

[54] ابن أبي حاتم، *الجرح والتعديل*، 7:281

[55] الخطيب البغدادي، *الجامع لأخلاق الراوي*، 2:144

[56] العجلي، *الثقات*، 408

[57] ابن أبي حاتم، *الجرح والتعديل*، 2:331

[58] ابن أبي خيثمة، *التاريخ*، 2:265

[59] انظر: الأعظمي، *دراسات في تاريخ الحديث*، 92-124

[60] المصدر السابق، 520

[61] ابن أبي حاتم، *الجرح والتعديل*، 3:589

[62] انظر: الأعظمي، *دراسات في تاريخ الحديث*، 92-124

[63] ابن سعد، *الطبقات الكبرى*، 3:193

[64] الخطيب البغدادي، *تقييد العلم*، 38، إسناده صحيح يرويه مروان الفزاري" ثقة حافظ، انظر: *تقريب التهذيب*، 526، عن أبي مالك الأشجعي "ثقة، انظر: *تقريب التهذيب*، 231، عن أبي الشعثاء " ثقة، انظر: *تقريب التهذيب*، 249".

[65] الدارمي، *المسند*، ح499، وقد رواه عن عبد الله بن مرداس ابنه عفّاق المحاربي ذكره ابن حبان في الثقات، 7:304، وباقي رجال الإسناد من الثقات المشهورين حيث رواه أبو نعيم عن إسرائيل بن يونس.

[66] الخطيب البغدادي، *تقييد العلم*، 39

[67] المصدر السابق

[68] انظر ترجمته في *الجرح والتعديل*، 8:362 حيث ضعّفه ابن معين والقّطان وأبو حاتم.

[69] انظر: ابن أبي شيبة، *المصنف*، كتاب الصلاة، باب من كان يعلم التشهد ويأمر بتعليمه، ح3023، وفيه جويبر وهو ضعيف جدا.

[70] الخطيب البغدادي، *تقييد العلم*، 40. بإسناد صحيح.

[71] الخطيب البغدادي، تقييد العلم، 40، إسناده حسن، ففيه سهل بن أسلم وهو صدوق، " انظر: *تقريب التهذيب*، 257.

[72] أحمد بن حنبل، *العلل ومعرفة الرجال*، 2:450، إسناده صحيح.

[73] انظر: كتاب الخطيب البغدادي، *تقييد العلم*، حيث ذكر موقف الصحابة وأقوالهم في النهي ثم الإذن، ولم يذكر ابن مسعود إلا في باب النهي وكذلك أبو موسى الأشعري، ولم يرد عنهما ما يتعلق بكتابة الحديث أو الإذن لتلاميذهما في ذلك بخلاف غيرهما من الصحابة.

[74] ابن المديني، *العلل*، 1:43

[75] المصدر السابق، ص72

[76] الخطيب البغدادي، *تقييد العلم*، 88، بإسناد صحيح

[77] المصدر السابق، 1:89، بإسناد حسن ففيه حبيب بن جري وهو صالح الحديث " انظر: *الجرح والتعديل*، 3:97".

[78] هيمنة الثقافة الشفوية والاحتفاظ بمكانة الحفظ عندهم هي من الأسباب التي ذكرها الدكتور محيي الدين دوزنلي في بحثه " الخلفية التاريخية لمعارضة الحديث وتدوينه" HADİS KİTÂBETİ KARŞITLIĞININ TARİHÎ ARKA PLANI، ص523- ص525

[79] الخطيب البغدادي، *الجامع لأخلاق الراوي*، 288/2

[8080] د. محيي الدين دوزنلي، HADİS KİTÂBETİ KARŞITLIĞININ TARİHÎ ARKA PLANI، ص525

[81] انظر ترجمته: المزي، *تهذيب الكمال*، 5:249

[82] المصدر السابق، 10:132

[83] انظر: ابن حجر، *تقريب التهذيب*، 1:482

[84] ابن أبي حاتم، *الجرح والتعديل*، 7:282

[85] انظر: صنوبر، د.أحمد عبد الجبار، من النبي إلى البخاري دراسة في حركة رواية الحديث ونقده في القرون الثلاثة الأولى، (عمّان: دار الفتح، 2021م) ط1، ص71

[86] المصدر السابق، ص68

[87] انظر: المصدر نفسه، ص67-ص68